حاجي بابا إصفهاني

للكاتب الانجليزي "جمس موير"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

(تابع)

وكان الضباط والجنود وهم أكثر الفارسيين كلاماً وأقلهم جرأة يصيحون: « اقتلوهم! اضربوهم! اعتقلوهم! » ولكن أحداً من هؤلاء الصائحين لم يفعل شيئاً ليمنع العدو المغير. وأطلقت بعض طلقات نحونا فلم يصب أحدنا لحسن الحظ إصابة جدية. وذلك بسبب الظلام

وفي أثناء هذه الحركة حدثتني نفسي بأن أترك اللصوص وأختبئ في مكان أفر منه في الصباح. ولكن رأيت بعد تفكير قليل أن ذلك يؤدي إلى اعتقالي ومحاكمتي لأن الثياب التي عليّ تدل على اشتراكي مع التركمان في هذه الغزوة. وليت الأمر يقتصر على الاعتقال والمحاكمة بل إن أهل المدينة يمزقونني إرباً إذا رأوني قبل أن أجد فرصة لشرح حالتي لهم

ورأيت وأنا أجري في الطريق حانوت أبي فتذكرت أيامي السعيدة. ولم أستطع منع نفسي من التريث قليلا والالتفات إليه بعد أن غادرته

وشعرت في هذا الحين بيد تمسكني من ذراعي ورأيت أصلان سلطان عابس الوجه يهددني بالقتل إذا لم أبرهن على أنني أهل للثقة التي أولانيها، فلأجل أن أظهر له وفائي هاجمت رجلا فارسياً كان قد خرج ليرى سبب الهياج وقلت له إنه إذا لم يتبعنا أسيراً فاني أقتله

فصاح الرجل متوسلا بقبر الحسين وبقبر عمر وبروح أبي أن أتركه

ولما سمعت صوته تأملت في وجهه فاذا هو أبي، ولا بد أن يكون غرضه الأول من الخروج إلى الطريق في هذا الوقت هو إنقاذ ما بحانوته من أيدي اللصوص

ولم يكن بذلك الحانوت غير ستة مناديل وأربعة كراسي وصندوق من المواسي وصابون وسجاد

ولما عرفت أنه أبي تركت لحيته التي كنت قابضاً عليها وهممت بأن أجري على عادة الفارسيين في احترام آبائهم فأقبل يده وأقف أمامه منتظراً أوامره، ولكنني رأيت أنني لو فعلت ذلك لقضيت على حياتي وحياته فتظاهرت بأنني أضربه ووجهت ضرباتي إلى سرج جوادي وقال متمتماً: لو كان ابني حاجي بابا موجوداً لما عوملت هذه المعاملة »

فآلمتني هذه الكلمة أشد الألم وقلت لأصلان باللغة التركية: هذا الرجل لا يفيدنا بشيء لأنه حلاق »

ثم تركته وركضت مع أصلان

الفصل السادس

التحقيق مع الأسرى وتوزيع الأسلاب

لما وصلنا إلى مكان بعيد عن المدينة نزلنا عن الخيل لنريحها ونستريح ولم ينس أصحابي أن يسرقوا جملاً في جملة ما سرقوه فذبحوه وشووه واقتسمناه بيننا، وكان أول شيء فعلناه بعد ذلك هو التحقيق مع الأسرى لنعرف ماذا استفدناه من أسرهم. وكان الأول طويل القامة نحيل الجسم يبلغ الخمسين من العمر حاد النظرات بادي عظام الوجنتين خفيف

اللحية يبدو عليه التفكير . وكانت ثيابه ثمينة دالة على الغنى

وكان الرجل الثانى قصيراً سميناً ممتلئ الوجه بالدموية تدل هيئته وثيابه على أنه من كبار الموظفين وهو يبلغ الخامسة والثلاثين من العمر

وكان الرجل الثالث قوى الجسم متجهم الوجه تدل هيئته على القوة والصلابة

أعطينا هؤلاء الأسرى ما بقى من طعامنا ، ثم دعونا واحداً بعد واحد منهم واستجوبناه عن صناعته ومركزه فى الحياة . ولما لم يكن أحد من زملائى يعرف اللغة الفارسية فقد قمت بمهمة الترجمة وكان الذى يلقى الأسئلة هو أصلان سلطان وسألنا الأسير الأول :

— « من أنت ؟ »

فقال بلهجة المستسلم : « أنا يا سادتى رجل فقير ليس لي مركز فى الحياة »

— « ما صناعتك ؟ »

— « أنا شاعر ولست أحسن أى عمل من الأعمال »

قال أصلان وهو يظهر الاشمئزاز عند ما سمع هذه الصناعة : « شاعر ! وماذا نستفيد بالشعر ؟ إن ثمنك لايقدر عندنا بعشرة قروش . إن الشعراء فقراء ولا يقبل أحد أن يفتديهم من الأسر لأنه لا نفع فيهم »

ثم قال : « ولكن إذا كنت شاعراً فن أين جاءتك هذه الثياب الثمينة ؟ »

فقال الشاعر : هذه خلعة أجازنى بها أمير شيراز على قصيدة مدحته بها

فأمر أصلان سلطان بنزع هذه الثياب عنه وإعطائه ثوباً من سلخ الغنم . ثم جئ بالرجل القصير السمين وسألناه :

— « ما اسمك وما صناعتك ؟ »

— « أنا قاض فقير »

— « وكيف تلبس هذه الثياب إذا كنت فقيراً ؟ اعترف بأنك غنى وإلا فصلنا رأسك عن جثتك . إن كل القضاة أغنياء فصناعتهم تجارة رابحة »

قال القاضى الأسير : « أنا قاضى مدينة جالادون وقد جئت إلى أصفهان بأمر من الحاكم لأدفع الضريبة عن مزارعى »

فقال أصلان سلطان : « وأين هى الأموال التى جئت لتدفعها ؟ »

أجاب القاضى : « ليس معى أموال لأن الجراد أتلف زراعتى فى هذا العام ولم يكن ماء الرى كافياً »

فقال الزعيم : « هذا القاضى يقدر بثمن كبير وإذا كان عادلاً فان الفلاحين يودون أن يعود إليهم . أما إذا لم يكن كذلك فان قيمته لاتقدر بدينار (وهو أصغر عملة فى فارس) احتفظوا به فقد يكون انتفاعنا به أكثر من انتفاعنا من أى تاجر غني . ولننظر الآن ماقيمة الرجل الثالث »

واتجه أصلان سلطان إلى الرجل الثالث وقال : « من أنت وما صناعتك ؟ » فقال الرجل بلهجة المعتز بنفسه : « صناعتى فراش »

فصاحت الأصوات من كل جانب : « هذا كذاب ! هذا كذاب ! ويستحيل أن يكون فراشاً . أنت تاجر وإذا أصررت على كذبك فاننا سنقتلك »

ولكن الرجل أصر على قوله فضربوه حتى اعترف بأنه تاجر

ولكنني وأنا أكثر منهم معرفة بأحوال الناس رأيت من هيئة الرجل أنه قد لا يكون تاجراً وأنه ربما كان صادقاً فيما يقول، فحاولت إقناعهم بذلك ولكنهم زجروني وحاول بعضهم أن يضربني فاضطررت إلى السكوت . وتداول أصحابي بعد ذلك فيما يجب أن يفعلوه بالثلاثة الأسري ، فقال البعض إنه يحسن إبقاء القاضي وقتل الشاعر والفراش، ورأى البعض إبقاء القاضي طمعاً فى فديته واسترقاق الفراش . واجتمعت كلمة الفريقين على قتل الشاعر

وقد أخذتني الرأفة بهذا الرجل الذى كانت هيئته تدل على أنه كبير الأهمية وعلى أنه غنيّ بالرغم من ادعائه الفقر فقلت لأصحابي : « ما أهول الغلطة التى تريدون ارتكابها ! تقتلون شاعراً ؟ ألا تعرفون أن الشعراء قد يكونون من أغنى الناس وأنهم جميعاً قادرون على الوصول إلى الغنى متى اتجهت ميولهم إليه لأن كسبهم من ثمرات عقولهم ؟ ألم تسمعوا عن الملك الذى كان يعطى الشاعر مثقالا من الذهب عن كل بيت يقوله ؟ أليس الشاه الحالى يجزل المطايا على قصائد المديح ؟ ومن يدرى لعل الشاعر الأسير عندنا الآن هو شاعر الملك » !

قال أحد اللصوص : « إذا كان الأمر كذلك فليكتب لنا قصيدة فى الحال وإذا لم يجن بكل بيت منها مثقالا فاننا نقتله »

فقال الجميع : « قل لنا شعراً وإلا قطعنا لسانك »

وأخيراً تقرر أن يبقى الثلاثة الأسرى ثم بدأوا يقتسمون بينهم الأسلاب ، فدعانا أصلان وجمعنا حوله وسأل كلا منا عما سرقه فقدم إليه بعضهم مباسم ذهبية وقدم البعض علباً فضية أو طيلساناً أو غير ذلك من الأشياء القليلة الثمن .

ولما جاء دوري قدمت الصندوق المملوء بأكياس الذهب وكنت قد راجعت عقلي وخشيت أن يوجد مني الكيس الذى خبأته فوضعته بالصندوق مكتفياً بما اعتقدت أنهم سيمنحونه لى من الأسلاب

لكن طاش فألى فانهم قابلوني بالتصفيق وامتدحوني وأثنوا عليّ . ولكنهم لم يعطوني شيئاً رغم إلحاحي الشديد

قال أصلان عند ما قدمت إليه الصندوق : « أحسنت ياحاجي . أحسنت كل الاحسان . لقد أصبحت تركانياً صادقاً وليس فى وسع أحدنا أن يفعل خيراً مما فعلت »

ولما انتهى كل واحد من إطرائى قال الزعيم : « إننى سأتبناك ياحاجى بابا وسأقيم لك خيمة وحدك وأزوجك من إحدى إمائى وأعطيك قطيعاً من الغنم وسأدعو إلى عرسك جميع المسكر »

لم يكن شأن هذه السكلمات إلا أن تزيد من تصميمى على الفرار فى الفرصة الأولى . ولما طلبت إعطائى نصيباً من الأسلاب قيل لى : « إذا قلت كلة أخرى فاننا سنقطع رأسك »

فسكت مكرهاً ثم اقتسموها بينهم فحدثت منازعات كادت تؤدى إلى سفك الدم لولا أن واحداً منهم قال : « لماذا نختصم كذلك وبيننا قاض ! تعالوا نترك الأمر لحكمه »

فجيء بالقاضي الأسير ليكون حكما بين اللصوص الذين يختصمون على توزيع أمواله لأن أكثر المسروق كان مملوكا له

الفصل السابع

تاريخ الشاعر عسكر

عدنا من نفس الطريق الذي أتينا منه . وكان منظر الشاعر منذ أسرناه مؤثراً لخصصته بعطفي وقد أرضيت غروري بأن أصبح في حمايتي رجل من رجال الأدب في وقت محنته . ونجحت في تولي الرقابة عليه محتجاً بأني سأحثه على نظم الشعر

وصرت أتكلم معه باللغة الفارسية التي لا يفهمها أحد من التركمان وقد أمنت جانبه وأمن جانبي فأعربت له عن رغبتي في الفرار وأظهرت له استمدادي لأداء أية خدمة له . وقد ظهر عليه السرور حين سمع كلماتي الرقيقة حيث كان لا ينتظر إلا معاملة خشنة . ولما اكتسبت ثقته بهذه الوسيلة أخذ يحدثني بحرية عن نفسه وشئونه وقد كان كما ظننت شاعر الملك

وكان لقبه الرسمي « ملك الشعراء » وكان عائداً من شيراز (حيث أرسله الشاه في مهمة) إلى طهران ومر بأصفهان ليلة وقوعه في أسرنا .

ولقطع المسافة في الطريق الشاق طلبت إليه أن يحدثني بقصته بعد أن حدثته بقصتي فروى لي تاريخه كما سأذكره متوخياً ذكر ألفاظه . قال :

« ولدت في مدينة كرمان واسمي عسكر وكان أبي حاكما على المدينة في عهد الملك الخصي « أغا محمد شاه » وبالرغم من كثرة الدسائس التي كان يراد بها عزل أبي فانه كان من القوة بحيث تغلب على كل أعدائه . وبقي في منصبه حتى مات موتاً هادئاً في عهد الشاه الحالي وورثت عنه عشرة آلاف طومان (نحو ستة آلاف جنيه) وكنت في صغري منهمكا في الدراسة حتى بلغت السادسة عشرة من العمر فأصبحت من أكثر الناس استظهاراً للشعر . وكان ديوان حافظ الشيرازي مما حفظته عن ظهر قلب . وصرت أقرض الشعر بسهولة عجيبة حتى اشتهرت بأني أستطيع أن أجعل كل كلامي منظوماً . ولم أترك موضوعاً إلا وكتبت فيه ، فكتبت عن ليلى ومجنونها ونظمت قصائد كثيرة على لسان البلبل يناجي بها الورد ، وفي مختلف المرامي والأغراض . وفي ذلك الوقت كان الشاه يحارب « صادق خان » وهو زعيم كان يطالب بالعرش .

وقاد الشاه جنوده بشخصه لضمان الانتصار على هذا الثائر فكتبت قصائد كثيرة في مدح الشاه وتشجيع جنوده على الحرب وجعلت في بعض هذه القصائد كلاماً على لسان رستم أشهر الفرسان في تاريخ بلادنا وجئت بالمعاني البديعة التي سهل حفظها وكثر تداولها ، ومن هذه المعاني قولي إنه لاحق لجنود صادق خان في التظلم من الشاه لأنه وإن كان قتلهم إلا أنه جعل رؤوسهم عالية برفعها إلى السماء . وقد سمع جلالة الشاه هذا القول في جملة ما سمعه من مدائحي فطرب وأمر بنصب أعمدة توضع فوقها رؤوس الثائرين تصديقاً لما قلته .

وأكرمني أكبر اكرام يمكن أن يناله شاعر وذلك بأن ملأ فمي دراً في وسط جمع حاشد من كبراء الدولة ورجال البلاط والوزراء والحكام . وكان هذا أول باب لرفعتي فقد عينت بعد ذلك في الحاشية وجعلت شاعر الملك وكلفت بالكتابة عن كل الحوادث . وقلت للشاه إن الشاعر الفردوسي وضع كتاباً لتخليد ذكرى جده وسمي كتابه « شاه نامه » أي تاريخ الملوك وإن ذلك الشاه أذن بأن يقدم الكتاب باسمه وكافأ صاحبه عليه .

واستأذنت جلالته أن أسمى كتاباً أدعوه « شاهنشا هنامه » أى تاريخ ملك الملوك ، فسر الملك وأذن بوضعه وتتويجه باسمه وشكرنى .

وكان وزير المالية عدواً لى بغير سبب يحمل على المداوة ففرض علىّ ضريبة قدرها ١٢٠٠٠ طومان بوصف كونى أكبر شاعر فى البلاد فرفعت أمرى إلى الشاه الذى أمر بالغاء هذه الضريبة .

وحدث فى يوم من الأيام أن دارت مناقشة فى جمع كبير عن الجائزة التى أثاب بها محمود شاه شاعره الفردوسى وهى منحه مثقالا من الذهب على كل بيت فقلت إن هذه الجائزة تعدل ، لا بل تقل عن جوائز الشاه الحالى لشاعره الضعيف الموجود بينكم الآن ، فالتفتت إلىّ العيون وبدا على كل من المجتمعين أنه قوى الرغبة فى معرفة الجائزة التى أثابنى بها الملك . فقلت إن جلالته سمح بأن أرث عن أبى عشرة آلاف طومان مع أنه كان حاكما وأموال الحكام يرثها الشاه إذا أراد ، وفقاً لقوانين هذه البلاد فكان هذا المبلغ أول جائزة نلتها . ثم أراد وزير المالية أن يفرض علىّ ضريبة قدرها ١٢٠٠٠ طومان فرفع جلالته عني هذه الضريبة وأجازنى بكيت وكيت . وذكرت هداياه لى والراتب الذى أتقاضاه فى منصبى ، فكانت جملة ذلك أكبر من جائزة محمود شاه للشاعر الفردوسى ثم هتفت بحياة الملك وبأن ينصره الله على كل أعدائه

وكنت على يقين من أن كل ماقلته فى هذا المجلس سينقل إلى الشاه بأحرفه . وبعد بضعة أيام جاءتنى خلعة سنية لا أزال أرتديها فى الأعياد وفى أيام المقابلات الرسمية . وهنأنى كافة الأصدقاء فشعرت من السرور بما لم أشعر بمثله من قبل

وكتبت قصيدة أمدح بها الملك وأثار ثأراً مضاعفاً من وزير المالية ، وكان كل بيت فيها محتملاً معنيين أحدهما فى مدح الملك والآخر فى ذم الوزير .

وكنت فضلاً عن الشعر الذى تفوقت فى صناعته تفوقاً عظيما ، على جانب كبير من المعرفة بالميكانيكا فاخترعت آلات نالت إعجاباً شديداً فى القصر الملكى واخترعت كذلك نوعاً من الورق وآخر من الحبر وبعض أنواع الثياب . وقد تركت الشعر مدة كنت فى خلالها أشتغل باختراع أقمشة تغنى عن التى نستوردها من أوربا . فطلبنى الشاه وأمرنى بأن أعود إلى نظم الشعر وأترك الاشتغال بالأقمشة لأن ما يرد من أوربا يكفى مؤونة الاختراعات فصدعت بأمر جلالته ...

ولما جاء يوم النيروز استعد كل من خدم جلالته لتقديم هدية إليه كما هى العادة فى هذه البلاد ونظمت قصيدة رائعة فى مدحه فكتبتها بخط جميل ووضعتها فى إطار ثمين وقدمتها إليه ، فلما سمعها منى وقرأها أمر كل وزرائه ورجال حاشيته بأن يقبلوا فمى ففرحت باكرامه لى وإن كان قد ساءنى اختيار هذا النوع من الجزاء

وأخذ الناس لا يعدون الفردوسى شيئاً يذكر بالقياس لهذا الشاعر الحديث

وكذلك صرت من أقرب المقربين إلى الملك وانفتحت أمامى أبواب الغنى كما انفتحت أبواب الجاه

وكان آخر ما أكرمنى به أن أرسلنى إلى شيراز مندوباً عن جلالته لأسلم الخلعة السنوية التى يرسلها إلى ولى عهده . وأرسل معى هدايا غالية وعهد إلى باستلام الضرائب من الجباة فى الطريق ، فكانت جملة ذلك عظيمة جدا

ولما حدث حادث الأمس ضاع كل ذلك فلم يبق منه شيء فصرت أتعس إنسان في الوجود. وإذا أنت لم تهيئ لي الطريق إلى الفرار فانى سأموت أسيراً بين هؤلاء اللصوص . ولو سمع الملك بأسرى فانه يتمنى خلاصى ولكنه لايدفع ديناراً واحداً ليفتديني لأن وزير ماليته لابد أن يحاول منعه عن ذلك منتهزاً فرصة غيابي . ولأن رئيس الوزارة يكرهنى كذلك لأنى قلت في يوم من الأيام وقد جرى بيننا الحديث عن الفنون الصناعية والفنون الأدبية : « إنه لا قيمة لحكمته ومعارفه إذا لم يكن يعرف من الصناعة تركيب الآلات التى تدور بها ساعته على الأقل » . وربما كانت الأموال التى أتيت بها قد سرقت جميعها وهكذا أصبحت يائساً . ولكننى أتوسل إليك بجامعة الاسلام التى تربطنى بك أن تساعدنى إذا أمكنتك المساعدة »

الفصل الثامن

حاجي بابا يهرب من الأسر

لما انتهى الشاعر من سرد قصته أكدت له استعدادى لبذل كل ما فى وسعى لخدمته، ولكننى أوصيته بالصبر وبالتجلد فى الوقت الحاضر لأنى لم أملك بعد حريتى ومن الصعب أن أحميه وأحمى نفسى قبل أن أصير حراً، وأفهمته صعوبة الفرار منهم لأن رقابتهم شديدة على الصحراء وجيادهم مثل جيادنا وهم أكثر خبرة بالطريق فالهرب إذن لايمكن أن يكون إلا حماقة . وخير وسيلة هى الصبر وانتهاز الفرص

جاوزنا الصحراء ووصلنا إلى الطريق الذى يمر بين طهران ومشهد وصرنا على بعد عشرين فرسخاً من داماجان ، فأمرنا أصلان بالبقاء يوماً أو يومين فى هذا المكان لعلنا نجد فيه قافلة فنهاجمها لأن هذا الطريق هو طريق القوافل

وفى فجر اليوم التالى عاد إلينا أحد جواسيسنا يقول إنه رأى غباراً يتطاير من الجهة الغربية وإن قافلة ستقبل نحونا آتية من داماجان إلى مشهد . فقيدنا الأسرى وتركناهم فى المكان الذى نحن فيه على أمل أن نعود إليهم متى فرغنا من مهاجمة القافلة وسرنا نحوها راغبين فى السرقة وسفك الدماء

وكان فى المقدمة أصلان سلطان وكنت بجانبه وقال لى : « هذه فرصة سانحة لك ياحاجى بابا لتتعلم كيف تقود هذه الغزوات فى المستقبل . إننى أصبحت لا أستغنى عنك لأننا قد نجد قوافل ليس فيها فرد واحد يعرف اللغة التركية وسأجعلك مترجمى الخاص »

وكنا كلما اقتربنا من القافلة نرى أصلان سلطان يزيد قلقاً واضطراباً . وأخيرا قال : « أخشى ألا تكون هذه قافلة فان نظام الصفوف يدل على أنهم جنود؛ وفضلا عن ذلك أرى وميض الأسنة وشيئاً يشبه الأعلام »

ولما زاد اقترابنا منهم اتضح لنا أنهم جنود وأن الموكب موكب رسمى ولعله موكب حاكم مسافر من مدينة إلى مدينة فخفق قلبى سروراً لعلمى أن هذه أحسن فرصة سنحت لى للفرار وليس علىّ إلا الاقتراب حتى أمكنهم من أسرى دون أن أثير ريبة فى نفوس التركمان، وقد يعاملنى الجنود معاملة سيئة فى مبدأ الأمر ولكنهم سيعلمون بلا ريب بعد فترة قصيرة حقيقة أمرى فيمتنعون عن إساءة المعاملة . وقلت لأصلان : « تعال نجر نحوهم. ودون أن أنتظر أمره جريت لجرى خافي لكى يتبعنى ولكننا صرنا على مسافة قريبة منهم ، فعاد وعدت معه وكان يسرع لكى ينجو وكنت أبطيء لكي أقع فى الأسر

وفى هذه الأثناء انشق بعض الفرسان عن الموكب وجروا خلفنا ونجحت مناورتى فأسرت ولكنهم فتشونى وأخذوا ما معى من الزاد والثياب وأخذوا الخمسين قطعة من الذهب وصندوق المواسى أيضا وتحملت ضربهم إياى ولطمهم وجهى بصبر وجلد حتى جيء بي أمام زعيمهم وقد تبينت من شكله ومن ملابسه أنه أمير وزال كل شك عندما ضربنى الجنود وأمرونى بالسجود فى حضرة « الشاه زاده »

ولما خفت أن يقتلونى اجترأت فأمسكت بثوب الأمير وأنا راكع عند قدميه وصحت « بيناه بى شاه زاده ! » أي أنا فى حماية الأمير صاحب السمو الملكى »

ولم يكن لأحد أن يعتدى عليّ فى هذه الحالة لأن التشبث بثوب الأمير يعتبر عند الفارسيين لاجئاً إلى شخص مقدس كما يفر المذنبون فى أوربا إلى الكنيسة فلا يجوز اعتقالهم . وقد أمرهم سموه بأن يبتعدوا عنى ووعد بأن يحميني فقبلت الأرض بين يديه وشرحت حالتى بأكثر ما يمكن من الايجاز وطلبت إليهم إذا أرادوا التحقق من صدق قولى أن يبعثوا بعدد من الفرسان ليقبضوا على التركان . وقلت لهم إنهم إذا فعلوا ذلك فسيجدون فى أسرهم شاعر الملك وإثنين من الوجهاء الفارسيين وقلت إن عدد التركان قليل بحيث يسهل التغلب عليهم .

لكن الفرسان الذين كانوا يطاردون أصلان سلطان عادوا فى هذا الحين وأقسموا كذباً أن عدد التركان كان يربو على الألف فأكدت لهم أن عددهم لايعدو مائة فكذبونى واتهمونى بأنى جاسوس وبأنى أريد الشر بجنود الأمير وتوعدونى بالقتل إذا قام التركان بهجوم ضدنا

ثم سار الموكب فى غير الاتجاه الذى يؤدى إلى لقاء اللصوص وقد بدا عليهم من الخوف ما يبدو على كل فارس يسمع لفظة « تركمان »

أخذ منى جوادى وأركبت بغلا من البغال التى تحمل الأمتعة ولم يكن بجيبي درهم ولا فيمن حولى صديق وندمت على الحماقة التى دفعتنى إلى الانتقال من أسر التركان إلى أسر الجنود الفارسية وارتكنت على ما اعتاده قومى من حرية الكلام فأخذت أصيح بصوت عال : « أتدعون أنفسكم مسلمين ؟ إنكم قوم لا شعور لهم ولا إحساس وإن التركان أكثر رجولة منكم »

لكن هذا النوع من الشكاية لم يستثر غير الضحك والسخرية ممن سمعوه فاستبدلت به لهجة الضراعة وأخذت أتوسل بعلى والحسين وبأرواح آبائهم وحياة أبنائهم وأذكر رابطتى الدين والوطنية واستعطفتهم بذكر ما لاقيته فى أسر أعدائى وأعدائهم فلم أجد عطفاً إلى من رجل واحد اسمه «على خاطر» وقد قال لى وهو يشمل لفافته : « إن هذه الدنيا بيد الله يابنى . وإذا كان الله قد جعل لون هذه الدابة أبيض فهل يستطيع على خاطر أن يجعل لونها أسود؟ وإذا كان الله رزقنى شعيراً فهل أستطيع أن أجعله قمحاً ؟ احمد الله على حظك حسناً كان أوسيئاً وتمثل بقول حافظ الشيرازى : « إن كل ساعة تمر عليك ربح لا يمكن تعويضه »

تعزيت بهذا القول بعض العزاء ولم أعجب من تمثل الجندى بشعر حافظ فان التمثيل بالشعر أمر شائع عند الفارسيين فهم أمة شعرية . وقد عاملنى هذا الرجل معاملة عطف وشفقة وقاسمنى طعامه فى بقية الطريق وأخبرنى أن الأمير الذي وقعت فى أسره هو النجل الخامس للشاه وأنه عين حاكماً

لفاطمة خراسان وهو ذاهب الآن ليتولى الحكم فيها وأنه مستصحب من الجنود أكثر مما اعتاد أن يستصحبه ليرهب التركمان ، وأن الأوامر صدرت إليه بألا يدخل معهم فى موقعة جدية إلا إذا اضطر إلى ذلك ولكنه إن تلاقى مع عدد قليل منهم فليقطع رؤوسهم وليرسلها إلى طهران لتعلق على باب القصر الملكى .

قال لى الجندى : « احمد الله على أن سحنتك ليست كسحنة التركمان وإلا لقطعوا رأسك وأرسلوها إلى طهران فتحسب هناك من رؤوس الثوار .

ولما استرحنا من المسير فى الليل عزمت على أن أحاول مقابلة الأمير وأرجوه أن يرد لى الحسين قطعة من الذهب التى أخذت منى وثيابى وجوادى كذلك ، وكان صوت فى نفسى يحدثنى بأن حقى فى هذا المال ليس أكثر من حق الذى سلبه منى . وقد انتهزت فرصة قبل صلاة العشاء فتقدمت إليه .

وكان جالساً على عرقة فى خيمة نصبت له وقد حاول الجنود منعى ولكننى صحت : « عرظى داروم » أى « منى عريضة » فأمرنى سموه بأن أدخل وسألنى عما أريد

فشكوت إليه معاملة الجنود الذين سلبونى مالى عند ما اعتقلونى وطلبت إليه أن يأمر برد هذا المال وجوادى وثيابى

فسأل من حوله عن أسمائهم ، فلما أخبروه بهم استدعاهم فلما حضروا بين يديه سألهم عن مالى فانكروا أنهم أخذوا شيئاً منى . وأمر بتفتيشهم فلم يوجد معهم شىء . ولكننى أقسمت ورأى الأمير على وجهى علائم الصدق فأمر بجلادهم وطرحوهم على ظهورهم فوق الأرض ورفعوا أرجلهم المقيدة بحبل مربوط من الطرفين فى عصا غليظة وضربوهم، فاعترفوا بالمال

عند ذلك صحت بأعلى صوتى مخاطباً الأمير :

« أعطنى المال إذن »

فنظر سموه بكبرياء إلى من حوله وقال : « ماذا يقول هذا ؟ اضربوه بالحذاء على فمه إذا عاد إلى الكلام

فرفع أحد الجنود حذاء أخضر يظهر أنه أعد خصيصاً ليضرب به المذنبون وقال : كيف تجرؤ يا وغد على مخاطبة الأمير بهذه اللهجة ؟ إذهب وافتح عينيك وإلا قطعنا أذنيك »

ثم دفعنى بعنف إلى الجنود فقادونى من حضرة الأمير

عدت يائساً إلى صاحبى الذى لم يظهر شيئاً من الدهشة لما حدث وقال لى : « ما الذى كنت تنتظر ؟ أليس هو الأمير ؟ وهل تظن أى إنسان يرد شيئاً بعد أن يصير فى حوزته ؟ إن هذه البغلة لا تعطيك من الحشائش الخضراء بعد أن تصير فى فمها، وكذلك لا يعطيك الأمير المال بعد أن أصبح تحت تصرفه

« يتبع » عبد اللطيف النشار

المجموعة الأولى
للرواية
١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه ، والأذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة فى جزءين
و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد